United Nations
Educational, Scientific and
Cultural Organization

Organisation
des Nations Unies
pour l'éducation,
la science et la culture

Organización
de las Naciones Unidas
para la Educación,
la Ciencia y la Cultura

Организация
Объединенных Наций по
вопросам образования,
науки и культуры

منظمة الأمم المتحدة
للتربيـة والعلم والثقافة

联合国教育、
科学及文化组织

نحو إنسانية جديدة للقرن الحادي والعشرين

بقلم: إيرينا بوكوفا
المديرة العامة لليونسكو

هذا النص هو مساهمة أولى في تأمل اليونسكو في مسألة الإنسانية الجديدة، وتمت صياغته استناداً إلى الخطاب الذي ألقته المديرة العامة للمنظمة في ميلانو (إيطاليا)، في السابع من أيلول/سبتمبر عام 2010.

ولدت اليونسكو من فكرة بسيطة مفادها "لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام".

وأتت ديباجة الميثاق التأسيسي لليونسكو لتؤكد من جديد وبوضوح الإطار الإنساني لأي عملية تأمل حقيقية وأي عمل مستدام باتجاه السلام. فالسلام لا ينطوي فقط على *منفعة* عظيمة للإنسان، ذلك أن الإنسان، بطبيعة نواياه وقوة عزمه، يُعتبر المسؤول الأول والأخير عن إرساء السلام وضمان دوامه. وهذا هو بالتحديد المجال الذي ينبغي أن نعمل فيه لبناء السلام في عقول البشر من خلال التفاهم والتعاون الدولي في مجالات التعليم والعلوم والثقافة والاتصال.

وبعد مرور 65 عاماً على إنشاء اليونسكو، لا تزال هذه الفكرة التأسيسية تكتسي أهمية بالغة. لكن يجب أن نعمل على تكييف طريقة تحقيق هذه الفكرة مع المقتضيات الجديدة لهذا العصر. فالعولمة تسرّع تمازج الهويات، وازدهار تكنولوجيات المعلومات يعزز فرص التقارب والاختلاط بالآخرين. لكن هذا الازدهار يؤدي أيضاً إلى تفاقم التصورات الخاطئة وأشكال التعبير عن الاستياء. كما أن تغير المناخ وتناقص الموارد الطبيعية يسهمان في تصلّب المواقف.

ويحتم علينا هذا السياق الجديد إعادة النظر في الظروف اللازمة لتحقيق التفاهم وبناء السلام. فالتحولات التي يشهدها العالم تستوجب بناء نزعة إنسانية جديدة لا من الناحية النظرية فقط، بل في الممارسة أيضاً. ويجب ألا تقتصر هذه الإنسانية الجديدة على عملية البحث عن القيم، وهي عملية لا بد منها *أيضاً*، بل ينبغي كذلك أن تكون موجهة نحو تنفيذ برامج عملية تفضي إلى تحقيق نتائج ملموسة.

إن تبني النزعة الإنسانية يتمثل اليوم في القدرة على تكييف القوة التي تحملها رسالة قديمة جداً مع مقتضيات العالم الحديث. ويقوم هذا العمل في الأساس على جهود متواصلة لا حدود زمنية لها، وهو ما عبّر عنه بوضوح الفيلسوف الإيطالي بيكو ديلا ميراندولا (1463-1494) الذي حدد، وهو في سن الرابعة والعشرين فقط، مفهوم الإنسانية المركزي في كتابه الشهير *خطاب في كرامة الإنسان* الذي وضعه في فلورنسا عام 1486: "إن الله الكلي القدرة (...) أخذ الإنسان (...) ووضعه في مركز الكون وقال له: "لم أجعلك مخلوقاً سماوياً ولا مخلوقاً أرضياً بحتاً. ولم أخلقك فانياً ولم أبدعك خالداً. فإنك تستطيع، حسب الإرادة التي وضعتها في أمرتك، أن تعيد خلق ذاتك وتعطي لنفسك الصورة التي تختارها". وإذا كان لنا أن نذكر مثالاً واحداً يعبّر خير تعبير عن القدرات المطلقة للإنسان، فلا بد من ذكر العبقري الخلاق ليوناردو دا فينشي (1452-1519) الذي خاض غمار الإبداع والعمارة والرسم والهندسة

المدنية، واهتم بجميع الميادين، بدءاً بالطب وانتهاءً بالبيولوجيا. وتظهر مخطوطاته تعطشه الدائم إلى المعرفة واهتمامه بحركة جريان المياه، وتأمله في مسألة المنظور الجوي، وموهبته في مراقبة الطبيعة وملاحظة سلوك معاصريه وأي تغير في مزاجهم. وابتدع دا فينشي أسلوباً جديداً في فن رسم الوجوه في لومبارديا، وأحدث ثورة في مجال الرسم ولم يكف طيلة حياته عن مد الجسور بين مختلف المجالات التي تمثل بتنوعها ثمار الإبداع المطلق للإنسان. وسيبقى دا فينشي، من خلال الأسفار التي قام بها بين إيطاليا وفرنسا، ومن خلال لوحاته الأزلية، ومنها الموناليزا والعشاء السري، جزءاً راسخاً من ذاكرة العالم بوصفه نموذجاً لأفضل ما يمكن أن يحققه الإنسان بفضل مخيلته وعمله الدؤوب.

مطلب جماعي

أضحت عملية "الإعداد الذاتي" هذه مطلباً جماعياً. ولا بد من الإشارة هنا إلى أهمية جانب محوري آخر للرسالة الإنسانية، أي الجانب الذي يشدد على البعد *الجماعي* لأي حياة ينعم فيها الإنسان بالسعادة. فعملية تحقيق الذات لا تكتمل إلا عندما يشارك الإنسان في المجتمع الذي ينتمي إليه. ويتحدث مناصرو النزعة الإنسانية عن مجتمع إنساني مبني على ترابط يجمع بين أبناء البلد الواحد ويمتد إلى كل قطر من أقطار المعمورة. وصحيح أن ثمة نزاعات قد تنشأ بفعل التصورات الخاطئة أو الخلافات السطحية، لكن ما يجمعنا أقوى مما يفرقنا. ووحدة الحضارة الإنسانية تشكل بالتالي نقطة تلاقي كل ثقافات العالم.

ومن مصلحتنا اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أن نبني هذا المجتمع النموذجي ونجعله حقيقة على أرض الواقع. والأزمات التي يشهدها العالم تضعنا أمام تحديات كبيرة يتعذر على أي بلد من بلدان العالم مواجهتها بمفرده. فالمجتمعات باتت مترابطة ولا يسعها أن تتحرك بمعزل عن بعضها بعضاً. ويتعين علينا إذاً توحيد صف المجتمع الإنساني وبناء مساحة مشتركة، من دون استثناء أحد، بصرف النظر عن العرق أو الأصل أو العمر أو الجنس.

ويبقى لنا أن نحدد أفضل الوسائل لتحقيق التلاحم بين أفراد المجتمع الإنساني. بيد أن مناصري النزعة الإنسانية أدركوا منذ القدم أن الثقافة، وغيرها من الأشكال التي يتجلى فيها فكر الإنسان، هي أساس هذا المجتمع وسبب نموه وازدهاره. ونتشارك جميعاً، على الرغم من تنوعنا، الثقافة الإنسانية نفسها. ومن خلال التواصل وتعلّم اللغات والحوار ومن خلال التعاون العلمي، يمكننا أن ننفتح على العالم ونوسع نطاق معارفنا، ونكتشف عادات جديدة، وندخل المدينة الفاضلة التي ترتسم في عقول البشر لاكتشاف الرابط الإنساني الذي يجمعنا.

وسنحتاج دائماً إلى العودة إلى جذور هذه الإنسانية، وإلى اكتشاف المعنى العميق للثقافة من جديد، وإلى الاعتراف بأن المجتمع الإنساني إنما هو عامل ضروري لنعيش حياة ننعم فيها بالسعادة. وهذا بالتحديد ما يؤكده الميثاق التأسيسي لليونسكو الذي ينص على أن الاتفاقات الاقتصادية والسياسية لا تكفي لضمان السلام وأنه لا يمكن إحلال سلام دائم وتحقيق الازدهار على المستوى العالمي في غياب تعاون فكري ومعنوي بين بني البشر.

وما دعا إليه مناصرو النزعة الإنسانية في مختلف الأزمان والبلدان على مستوى مدينة أو بلد محدد، ينبغي لنا اليوم أن ننجح في تحقيقه على مستوى العالم. ويجب علينا أن نبني مجتمعاً إنسانياً عالمياً مستداماً استناداً إلى القيم الأساسية للإنسانية، بدءاً بالموارد التي تتيحها عقول البشر. إنها المهمة التي تقوم عليها الإنسانية الجديدة، وتتعهد اليونسكو بالاضطلاع بكل ما يقع على عاتقها في هذا المجال.

بناء مجتمع إنساني واحد لعالمنا

إن تبني النزعة الإنسانية يقوم اليوم على مد الجسور بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. ويقوم على تمتين أواصر المجتمع الإنساني لنتصدى معاً للتحديات التي نواجهها. ويقوم أيضاً على ضمان انتفاع الجميع بالتعليم الجيد ليتمكن كل منا من إيصال صوته في إطار الحوار بين دول العالم. وتبني النزعة الإنسانية يقوم على تشجيع شبكات التعاون العلمي، وإنشاء مراكز البحث، ونشر تكنولوجيات المعلومات لتسريع تبادل الأفكار. وهو يقوم أيضاً على استخدام الثقافة وأشكال التعبير المتنوعة التي تنطوي عليها بوصفها أداة للتقارب ولبناء رؤية مشتركة.

والإنسان الذي ينعم بالسعادة هو الإنسان الذي يعترف بالتعايش والمساواة مع الآخرين، حتى لو كانوا بعيدين عنه. وهو الإنسان الذي يسعى إلى إيجاد السبيل للعيش مع الآخرين. وتقوم الإنسانية الجديدة على تمكين الجميع من المساهمة بفعالية في المصير المشترك لبني البشر، بما في ذلك أشد الفئات حرماناً. وتقوم أيضاً على السعي إلى التحاق جميع أطفال العالم بالمدرسة وانتفاعهم جميعاً بالتعليم الجيد، لا سيما الفتيات منهم. وتقوم الإنسانية الجديدة كذلك على تحقيق المساواة بين الجنسين، وضمان تكافؤ فرص الرجل والمرأة للانتفاع بالمعرفة والوصول إلى السلطة. وتقوم الإنسانية الجديدة على تحسين فهمنا للبيئة وفهم عواقب تغير المناخ والتنبؤ بها لمساعدة الملايين من الأشخاص الذين يعانون من الجفاف والتصحر وارتفاع مستوى سطح البحر. وتقوم هذه النزعة الإنسانية أيضاً على حماية التنوع البيولوجي الذي يرتبط بالتنوع الثقافي. والنزعة الإنسانية الجديدة هي مرادف للتضامن مع الشعوب المتأثرة بالكوارث، سواء أكانت تعيش في مناطق قريبة أم بعيدة، في هاييتي أو في باكستان.

ويجب أن نسترشد بهذه الإنسانية الجديدة في سعينا إلى تحقيق التنمية في أشد البلدان فقراً. وينبغي التعويل على الترابط الوثيق بين مجالات التعليم والاتصال والثقافة والعلوم التي تسهم جميعها في بلورة استجابة شاملة ومستدامة للتحديات التي تواجهها الإنسانية. وسبق لليونسكو أن شددت على دور التفاهم والحوار بين الثقافات في إعلان صدر عنها عام 1953 ينص على أن "مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقة بين الثقافات. ومن هذه العلاقة يجب أن ينبثق مجتمع عالمي جديد يقوم على أساس التفاهم والاحترام المتبادل. ويجب أن يتبنى هذا المجتمع نزعة إنسانية جديدة يتحقق فيها مفهوم العالمية من خلال الاعتراف بالقيم المشتركة في سياق تنوع الثقافات"[1].

إن العولمة التي يشهدها القرن الحادي والعشرين لم تعد قائمة على "التواصل"، بل باتت قائمة على "التقاسم". وازداد إدراك المجتمع الإنساني العالمي للواقع الذي يجسده، ذلك أن أواصر هذا المجتمع باتت أقوى من ذي قبل، ونطاق الوقت والزمن قد تقلص. والشعوب باتت أكثر ترابطاً، والثقافات أصبحت أكثر اختلاطاً، والهويات أكثر امتزاجاً. وأضحت كل بلدان العالم جهات فاعلة في حركة العولمة ذاتها التي

[1] "أصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي"، إعلان صدر عن اليونسكو عام 1953.

يجب أن يتمكن الجميع من المشاركة فيها. وفي هذا السياق، إن الجهود اللازمة لبناء المجتمع الإنساني لم تعد تقتصر على *التسامح واحترام* الآخر *والتفاهم* عن بعد، كما يمكن أن تفعله المجتمعات البعيدة عن بعضها بعضاً. ألسنا بحاجة اليوم إلى تعاون أعمق وإلى مصالحة أقوى لتحقيق مشاريع مشتركة؟ وربما قد نحتاج أيضاً إلى إعداد هذه المشاريع بوصفها مقدمة للتفاهم بدلاً من جعلها رهناً به.

وأظهر التاريخ، لاسيما التاريخ المعاصر، أن القول بوجود مجتمع ما أسهل من مهمة بنائه. ونجد في الواقع أن ثمة مناطق مهمشة بأكملها عن هذا المجتمع الذي يتطلع إليه العالم بأسره، لاسيما القارة الأفريقية. وينبغي لنا، في ظل الانقسامات التي قد تنشأ بين أبناء الثقافة الواحدة، وفي ظل الفجوات التي قد تتسع بين أفراد المجتمع الواحد، أن نعطي زخماً جديداً لجهود التضامن وأن نعيد دمج جميع البلدان في المجتمع العالمي.

وليس من المستحيل تحقيق هذا المشروع. إذ أظهر التاريخ المعاصر أيضاً القوة التي تحملها حركة الاتحاد. وأنتمي إلى الجيل الذي عاش في أوروبا منقسمة شقها جدار برلين إلى نصفين. لكن هذا الجيل استطاع أن يستفيد من دروس الماضي لتوحيد هذه القارة من جديد. وشكل الإعلان المشترك للأمم المتحدة بشأن الأهداف الإنمائية للألفية عام 2000 خطوة بالغة الأهمية في إطار تأكيد الإرادة المشتركة لدول العالم. وبدعم من اليونسكو، اعترف مؤتمر قمة الأهداف الإنمائية للألفية الذي عُقد في نيويورك، في شهر أيلول/سبتمبر 2010، بأن للتربية والثقافة دورا مركزيا في تحقيق هذه الأهداف، وفي الحد من الفقر، وتحقيق التنمية المستدامة. وينبغي لنا أن نغتنم هذه الفرصة وألا نرضخ لقوى التشاؤم. ولنتذكر دائماً رسالة الفيلسوف بيكو ديلا ميراندولا الذي قال إنه "يجب أن نثق بقدرات الإنسان الحر الذي يمكنه أن يحرر نفسه من الظروف المحيطة به وأن يفلت من سجن تصوراته الخاصة".

مشاريع ملموسة

تتجلى أمامنا، يوماً بعد يوم، أهمية مشاريع اليونسكو بوصفها رافعة عظيمة لبناء المساحة المشتركة التي نتطلع إليها جميعاً. وتشكل مواقع التراث العالمي بما تتسم به من قيمة عالمية أدوات للتفاهم والاستقرار والتنمية. وتوفر هذه المواقع إطاراً معترفاً به للتعاون أو البحث العلمي أو الصون. وعملية ضم قدرات مجموعة من المهندسين المعماريين والمؤرخين والخبراء من شتى أنحاء العالم تشكل وسيلة ملموسة لتمكين الرجال والنساء الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة ويتبنون آراء مختلفة من التعاون في إطار مشروع مشترك يلتزمون به. وهذا المثال الذي يقدمونه يشجع الآخرين على التعاون في المستقبل. ونفذت اليونسكو في هذا الصدد العديد من المشاريع نذكر منها عملية إعادة بناء جسر موستار التي قادتها اليونسكو في البوسنة والهرسك بغية إحياء الحوار بين المحاربين القدامى؛ وإعادة مسلة أكسوم إلى مكانها الأصلي بعد إقدام إيطاليا على إعادة هذا الممتلك الثقافي إلى إثيوبيا عام 2005؛ وصون مدينة القدس القديمة، فضلاً عن الكثير من الإسهامات الأخرى التي استهلتها اليونسكو في مجال العلوم ووسائل الإعلام والتعليم والتي تجسد جميعها أدوات لتحقيق التقارب بين البشر.

إننا بصدد مشروع طموح يستدعي تحقيقه حشد كل ما تحمله عقول البشر من قوة. وفي الماضي، فضل مناصرو النزعة الإنسانية استخدام اللغات "المبسطة" على

الطابع الموحد للغة اللاتينية. ونحن أيضاً نتعلم اليوم كيف نستفيد من الموارد التي يتيحها التنوع. ويعتبر إعلانا اليونسكو لعام 2003 و2005 بشأن حماية التراث غير المادي وتنوع أشكال التعبير الثقافي من الأدوات المتاحة لتحقيق هذا الهدف. وتشكل كل ثقافة بحد ذاتها عاملاً حاسماً لفهم العالم، وعلينا بالتالي ألا نسعى إلى إلغاء الثقافات الأخرى. ومن الخطأ الاعتقاد أن الطابع الموحد يسهل الفهم، أنه يحجب الاختلاف لا أكثر. لقد استنزفنا الموارد الطبيعية ومن واجبنا أن نحافظ على موارد الفكر. وتشكل التربية والعلم والثقافة والاتصال الركائز اللازمة لبناء مجتمع إنساني متحد، والأسس التي تقوم عليها التنمية المستدامة للإنسانية. وليس هناك استثمار أكثر رشدا من الاستثمار الذي يقضي بوضع هذه المجالات في صميم عملية التنمية. إنه الرهان السياسي للقرن الجديد، وهو شرط بناء السلام.